الجُودُ والكرَمُ ودَورُهُما الاقتِصاديِّ والرِّياديِّ في بناءِ الأُسرِ وإسْعادِ البَشَرِ

محمد ياسر الدباغ
مدقق لغوي

بسم اللهِ الجَوادِ الكريمِ، والحمدُ له سبحانُه وتعالى المُنعمُ المُتفضِّلُ الحكيمُ، وصلَّى اللهُ وسلّمَ على سيِّدنا وقائدنا مُحمَّدٍ ذي الخُلقِ العظيمِ؛ مَن كانَ أجودَ بالخيرِ من الريحِ المرسلَةِ نفعاً ورحمةً كَرماً وجُوداً، ورَضِيَ اللهُ تعالى عن آلهِ الأخيارِ وصَحبِه الأبرارِ؛ مَن كانوا رُهبانَ الليلِ وفُرسانَ النهارِ، وعلى مَن سارَ على دَربِهم وبَذلَ المَعروفَ والنَّدى؛ ففاحَ عِطرُهُم بينَ الوَرى، وعمَّ نفعُهم وطابَ ذِكْرُهم طُولَ المدى، وعلينا معهُم برحمتِك يا أكرمَ مَن أعطى وأجودَ مَن أسدى، وبعدُ:

بادىءَ ذي بَدءٍ لا بُدَّ من مَعرفةِ معنى الجُودِ والكرمِ لُغةً وإشارةً؛ فهُما كلمتانِ مُحبَّبتانِ لدى بني الإنسانِ؛ ولمَ لا وقد اتَّصفَ اللهُ تباركَ وتعالى بأسمائِه الحُسنى وصِفاتِه الأسنى ومِنها الجَوادُ الكريمُ؛ ف"الجُودُ" : اسمٌ لمقدارٍ من المقاديرِ يتوسَّطُ بين البخلِ والإسرافِ، وما بينَ الجودِ والتبذيرِ درجاتٌ، ولكلِّ درجةٍ اسمٌ وسِماتٌ وصِفاتٌ. والجودُ والكرمُ وسطٌ بين الإسرافِ والإقتارِ، بين البسطِ والقبضِ، وهو: أن يَقدرَ على بَذلِه وإمساكِه بقدْرِ الواجبِ، ولابُدّ أن يكونَ قلبُه طيِّباً به غيرَ منازعٍ له فيه، أمّا مَن طمعَ في الشكرِ والثناءِ فهو بيَّاعٌ وليس بجَوادٍ.

ولا يُوصَفُ بالجُودِ إلاّ مَن يَصطنِعُ المعروفَ، ويَسلكُ سبيلَ المُروءةِ والفتوَّة. والجَودُ: المطرُ الغزيرُ، ورجلٌ جَوادٌ بيِّن الجُودِ. والجَوادِ: الفرسُ الذريعُ السريعُ. وجيادُ(الناسِ، الإبلِ، الخيلِ).

أمّا "كَرمٌ" : شرفٌ في الشيءِ في نفْسِه، وشَرفٌ في خُلقٍ من الأخلاقِ. ويُقال:(رجلٌ كريمٌ، فرسٌ كريمٌ، ونباتٌ كريمٌ، جوهرٌ كريمٌ) فيتضمَّنُ الكرمُ الغيثَ، والنفعَ، والشرفَ. والكَرمُ في الخُلقِ: الصفحُ عن ذنبِ المذنبِ مع أو بعدَ القدرةِ عليه؛ لأنّ العفوَ عن المجرِمِ مع عدمِ القدرةِ عليه يُعتبَر عَجزاً. الكريمُ: الصَّفوحُ، واللهُ تعالى هو الكريمُ الصفوحُ عن ذنوبِ عبادِه المؤمنين.

والسَّخاءُ صِفةٌ والسَّخِيُّ الجَوادُ؛ فنَفسُه طيِّبةٌ راضيةٌ مُطمئنةٌ مُوقنةٌ بكريمِ الأجرِ عندَ اللهِ الكريمِ.

وقد جاءَ في الأمثالِ العربيةِ الأصيلةِ: (الكَرمُ زينةُ الغنيِّ) و(طعامُ الكريمِ دواءٌ).

أما إشارةً فكلمةُ:

– جُود: (ج: جهادُ النفسِ، جلالُ الرُّوحِ، جمالُ الفؤادِ. و: وفاءُ العَهدِ، وِقايةُ العِرضِ، ورعُ القلبِ، د: دفعُ اليدِ، دفنُ الشُّحِّ، دَيدنُ المُؤمنِ).

– كرَم: (ك: كياسةُ النفسِ، كدح اليدِ، كمالُ المُروءةِ، ر: رَوحُ الحياةِ، رَوضُ الأُنْسِ، رِيادةُ الأُمَّةِ، م: مِفتاح المَحَبَّةِ، مِرقاةُ السِّيادةِ، معراجُ السَّعادةِ).

فـ "مَن جادَ سادَ، ومَن أكرمَ ازدادَ". و (سُؤددٌ بلا جُودٍ كمَلِكٍ بلا جُنودٍ، الجُودُ حارسُ الأعراضِ).

قال اللهُ تعالى: (وسَارِعُوا إلى مَغفرةٍ من ربِّكُمْ وجنَّةٍ عَرضُها السَّمواتُ والأرضُ أُعدَّتْ لِلمُتَّقينَ * الذينَ يُنفِقُونَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والكاظِمينَ الغيظَ والعافينَ عن النَّاسِ واللهُ يُحبُّ المُحسِنينَ) آل عمران: ١٣٣ و١٣٤.

وقال سُبحانَه تعالى: (مَثلُ الذينَ يُنفِقُونَ أمْوالَهُم في سَبيلِ اللهِ كمَثلِ حبَّةٍ أنبَتتْ سَبْعَ سنابلَ في كُلِّ سُنبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ واللهُ يُضاعِفُ لِمَن يَشاءُ واللهُ واسِعٌ عليمٌ* الذينَ يُنفِقونَ في سَبيلِ اللهِ ثمَّ لا يُتبِعُونَ ما أنفَقوا مَنًّا ولا أذىً لَهُم أجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِم ولا خَوفٌ عليهِم ولا هُمْ يَحزَنُونَ* قولٌ مَعروفٌ ومَغفرةٌ خيرٌ مِن صَدقةٍ يتبعُها أذىً واللهُ غَنيٌّ حَليمٌ) البقرة: ٢٦١–٢٦٣.

وقال النبيُّ مُحمَّدٌ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "حُرمَةُ نساءِ المُجاهِدينَ على القاعِدينَ كحُرمَةِ أمَّهاتِهم، وما مِنْ رَجُلٍ من القاعِدينَ يَخْلُفُ رَجُلاً من المُجاهِدينَ في أهْلِه فيَخونُه فيهِم إلاّ وُقِفَ لهُ يومَ القيامةِ فيأخُذ من عَملِه ما شاءَ فما ظَنُّكُمْ؟" (رواه مسلمٌ ١٨٩٧) وقال الإمامُ النوويُّ رحمَهُ اللهُ تعالى في شرحِه: "وهذا أمرٌ بالحثِّ على الإحسانِ إلى مَن فعلَ مصلحةً للمسلمينَ، أو قامَ بأمرٍ من مَهمَّاتِهم، وفيه تحريمُ التعرُّضِ لنِسَاءِ المُجاهِدينَ بريبةٍ (من نَظرٍ مُحرَّمٍ وخَلوةٍ، وحديثٍ مُحرَّمٍ مع بِرِّهِنَّ والإحسانِ إليهنَّ، وقضاءِ حَوائجِهنَّ التي لا يترتَّبُ عليها مفسدةٌ ولا يُتوصَّلُ بها إلى رِيبةٍ ونَحوِها)".

إنّ حالَ المؤمنِ الموقنِ بكريمِ فضلِ اللهِ وآلاءِ الكريمِ العُظمى كالنَّحلةِ صغيرٌ حجمُها، عظيمةٌ همَّتُها تجني طيِّباً وتضعُ طيِّباً؛ فعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ سمعتُ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: "والذي نفسي بيدِه إنّ مَثلَ المُؤمنِ كمَثلِ النَّحلةِ أكلتْ طيِّباً ووَقَعتْ فلم تكْسِرْ ولم تُفْسِدْ" (رواه أحمد) وهذا دَيدَنُ المؤمنِ المُخلِصِ المِعطاءِ يُعطي فيجدُ لذَّةَ الجودِ والكرمِ بلا منٍّ ولا أذىً؛ فهو يُعطي ولا يَنتظِرُ الشكرَ من أحدٍ؛ لأنّه أعطى للهِ الواحدِ الفردِ الكريمِ الصَّمدِ.

وللهِ درُّ العالمِ الرَّبَّانيِّ والعارفِ الحكيمِ القائلِ:

إنَّ المكارِمَ من خُلُقي ومِن شِيَمي ... فَقدْ وَسِعتُ الورَى جُوداً بأخلاقي

إنّي فُطِرتُ على أخـــلاقِ خالِقنا ... والأمــرُ مــا بيــنَ مَــرزُوقٍ ورَزَّاقِ

وهذا دأبُ الإنسانِ الكريمِ الجوادِ الأصيلِ كالغيثِ يَجودُ على الناسِ إرشاداً وإنشاداً،علماً وتعليماً، نفعاً ورفعاً، ترويحاً وتفريحاً، رَوحاً ورَيحاناً، أُنساً وإيناساً، إحساناً وتحناناً.

إنّ الكرمَ خُلقٌ من أخلاقِ الإسلامِ، والملائكةُ تدعُو كلَّ يومٍ بالتعويضِ على المُنفقينَ المخلصينَ في سبيلِ اللهِ تعالى؛ لأنّ اللهَ يُبارِكُ له فيه وفي رِبحه، ويَحميه من الآفاتِ في الدُّنيا، ويقيه مَصارِعَ السُّوءِ، ويُظلُّه يومَ القيامةِ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلاّ ظلُّه سُبحانَه وتعالى؛ فعَن أبي كبشةَ الأنماريِّ رضيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ما نَقصَ مالُ عبدٍ من صدقةٍ".

إنَّ أوّلَ خُطبةٍ خطبَها رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ في المدينةِ المنوَّرةِ بعدَ هجْرته النبويةِ المطهَّرةِ العَطِرَةِ قال بعدَ أن حَمِدَ اللهَ وأثنى عليه: "يا أيُّها النَّاسُ: إنّ اللهَ قد اختارَ لكمُ الإسلامَ ديناً فأحسِنوا صُحبَةَ الإسلامِ بالسخاءِ وحُسنِ الخُلقِ، ألا إنّ السخاءَ شجرةٌ من الجَنَّةِ وأغصانُها في الدُّنيا؛ فمَن كان منكُم سخيًّا لا يزالُ متعلِّقاً فيها حتّى يُوردَهُ الجنَّةَ، ألا إنّ اللؤمَ شجرةٌ في النّارِ وأغصانُها في الدُّنيا؛ فمَن كان منكُم لئيماً لا يزالُ مُتعلِّقاً بغُصنٍ منها حتّى يُوردَهُ اللهُ في النارِ، ثمَّ قال: السخاءَ في اللهِ، السخاءَ في اللهِ" أخرجَهُ ابنُ عساكرَ والديلميّ والبيهقيّ وابن عديٍّ.

لقد فَهِمَ أهلُ الفضلِ والمُروءةِ والمَعرفةِ والفتوَّةِ هذا المعنى، وطبَّقوهُ تطبيقاً سُلوكياً حياتيًّاً وفي مُقدمّتِهم الأنبياءُ والمُرسلونَ ومَن بَعدهُم من الحَواريينَ والأنصارِ والصحابةِ والتابعينِ ومَن سارَ على هَديهم إلى يومِ الدينِ؛ فأبو الأنبياءِ إبراهيمُ عليه وعلى نبيِّنا الصلاةُ والسلامُ كان يُقري الضِّيفانَ،وسيدنا شعيبٌ زوَّجَ ابنتَه لسيِّدنا مُوسى وجعلَ مَهرَه أجرةً لمدَّةٍ اتّفقا عليها وهو القائلُ(رَبِّ إنِّي لِمَا أنزَلْتَ إليَّ من خيرٍ فقيرٌ)، وسيِّدُنا مُحمَّد رسولُ اللهِ كان يُعطي عطاءَ مَن لا يخشى الفقرَ، وأبو بكرٍ الصِّديقُ رضيَ اللهُ عنه يتصدَّقُ بمالِه كلِّه ويعتقُ، وكمْ من الصحابةِ المُبشَّرينَ في الجنَّةِ في صحيفتِه إلى يومِ الدينِ؟! وعُمرُ الفاروقُ رضيَ اللهُ عنه يتصدَّقُ بنصفِ مالِه ويلبسُ إزاراً مَرقوعاً باثنتي عَشرةَ رُقعةً وهو خليفةُ المسلمينَ وأبطأَ يوماً على الناسِ في صلاةِ الجُمعةِ، وكان سببُ ذلكَ أنه غسَلَ ثوبَه ولم يَكنْ له ثوبٌ غيرُه يَخرجُ به، وعُثمانُ ذو النُّورَينِ رضيَ اللهُ عنه يتصدَّقُ بأجودَ ما عندَه ويُجهِّزُ جيشَ العُسرَةِ، واشترى بئرَ رومةَ. وعليٌّ الكَرَّارُ يتصدَّقُ بروحِه ونفْسِه فداءً لرسولِ اللهِ مُحمَّدٍ- بأبي وأمي ورُوحي أنتَ يا رسولَ اللهِ- حين نامَ في فراشِ النبيِّ عند هجرتِه النبويَّةِ العَطِرَةِ و"الجُودُ بالنفسِ أغلى غايةِ الجُودِ" وكذلك تبرَّعَ أبو الدَّحداحِ بحائطٍ(بستان فيه ٦٠٠ نخلة) فقال له رسولُ اللهِ عليه الصلاةُ والسلامُ: "رُبَّ نخلةٍ مُدلَّاةٍ عُروقُها دُرٌّ وياقوتٌ لأبي الدَّحداحِ في الجنَّةِ"، وقد قسمَ سيِّدُنا عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ رضيَ اللهُ عنه مالَه ثلاثَ مرَّاتٍ؛ فكان يقسمُه ثلاثةَ أقسامٍ: ثُلثٍ لأهلِه، وثلثٍ لتجارتِه، وثلثٍ لربِّه يُنفقُه في مصالحِ المُسلمينَ؛ "فمَن كَرُمَتْ عليه نفسُه هانتْ عليه أموالُه، ومَن هانتْ عليه نفسُه لم يصنْ مالُه، ولم ينفَعه حسبُه ونسبُه، ولم يغنِ عنه حُسنُه وجَمالُه.

وكما قال أميرُ المؤمنينَ عليّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه: "مَن تعرَّفَ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى في الرَّخاءِ تعرَّفَ عليه في الشِّدةِ؛ أيّ: مَن أنفقَ في سبيلِ اللهِ تباركَ وتعالى في حالِ الغِنى وإقبالِ الدنيا والرَّخاءِ أعانهُ اللهُ تعالى في حالِ الشدَّةِ والبلاءِ وإدبارِ الدُّنيا ومصائبِ الحياةِ، ويسَّرَ عليه أهوالَ يومِ القيامةِ.

لقد شبَّ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما وكَبرَ في بيتِ أكرمِ الكُرماءِ سيِّدنا رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّم وقد تسلسلتْ إليه هذه الخلَّةُ الكريمةُ وتشرَّبَتْها نفْسُه في طُفولته، وأخبارُ كرمه وجُوده أصبحتْ مَضربَ الأمثالِ، وقدوةَ العُظماء(الدوحة النبوية الشريفة (٨٤)؛ فعَن ابنِ عبَّاسٍ عن الحسنِ بن عليٍّ: "ولقد قسَمَ مالَه للهِ ثلاثَ مرَّاتٍ؛ حتّى إنّه يُعطي الخُفَّ ويُمسكُ النعلَ" (سير أعلام النبلاء ٢٦٠ / ٣)

ولله درُّ الشاعرِ حافظ إبراهيم وكأنّه يعني الحسنَ فقال:

إنَّي لَتُطربُني الخِلالُ كريمـة ... طَربَ الغَريبِ بأوبةٍ وتَـلاقِ
ويَهزُّني ذِكْرُ المُروءةِ والنَّدى ... بينَ الشمائلِ هزّةَ المُشـتاقِ
فإذا رُزِقْتَ خليقةً مَحمودةً ... فقد اصطفاكَ مُقسِّمُ الأرزاقِ
فالنَّاسُ هذا حَظُّهُ مـالٌ، وذا ... علمٌ، وذاكَ مكارمُ الأخـلاقِ

والجُودِ على وُجوهٍ (علماً وعملاً، رُوحاً ونفساً، مالاً وجاهاً، حكماً وحُكماً) وَجُودٌ بالوجوهِ كلِّها.

وكذلك الزكاةُ طهرةٌ للنفسِ، ونماءٌ للمالِ، وصيانةٌ للعرضِ، وعزٌّ للجاهِ.

قال الإمامُ مُحمَّدُ بنُ إدريسٍ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ تعالى:

وأدِّ زكـاةَ الجـاهِ واعلَـمْ بأنّها ... مِثـلُ زكـاةِ المـالِ تمَّ نِصـابُها

كما حذَّرَ من عدمِ بذلِ الجُودِ مع الإقبالِ فقالَ:

إذا لم تجَودُوا والأمورُ بكُمْ تمضي ... وقد مَلكَتْ أيديكُمُ البَسطَ والقبْضا
فمـاذا يُـرجَّى منكُمُ إنْ عُزِلتُمُ ... وعَضَّتْكُمُ الدُّنيـا بأنيابِها عَضَّـا
وتسـترجعُ الأيَّامُ مـا وهَبَتكُمُ ... ومِن عادةِ الأيَّـامِ تسْـترجعُ القرضا

وقد حذَّرَ سيِّدُنا النبيُّ مُحمّدٌ المسلمينَ من الندمِ على ما تصدَّقوا به أو العَودِ في صدقاتِهم فيقولُ لهم: "مَثلُ الذي يَرجعُ في صَدَقتِه كمَثلِ الكلبِ يقيءُ في قيئِه فيأكُلُه" (متفقٌ عليه)؛ فحَذارِ حَذارِ من التردُّدِ أو الاستردادِ في الصدقةِ أو الهبةِ.

وقال حكيمُ العربِ أكثمُ بنُ صيفيٍّ: "صاحبُ المَعروفِ لا يَقعُ؛ وإنْ وقعَ وَجَدَ مُتَّكَئاً".

وقال بعضُ الصالحينَ: "مَنعُ المَوجودِ في سبيلِ اللهِ تعالى سُوءُ ظنٍّ بالمَعبودِ؛ لقولِ اللهِ تعالى(وما أنفَقتمْ من شيءٍ فهُوَ يُخلِفُه وهو خَيرُ الرَّازِقينَ)".

كما أنّ الجودَ والكرمَ بوّابتان من أبواب الرِّزق الواسع؛ فقد وَردَ من حديث أبي هُريرةَ رضيَ اللّهُ عنه: "المعونةُ تأتي على قَدر المَؤونة" (شعب الإيمان ٧ / ١٩١) فمَن جرَّبَ عَرَفَ، ومَن عَرَفَ اغترفَ من مَعين القرآن الكريم والسُّنَّة الكريمة، ومَن أنصفَ اعترفَ ف"مَن أيقنَ بالخُلْف جاد بالعطيَّة" كما قال الحسنُ البصريُّ – رحمهُ اللّهُ تعالى – من اللّه الوهَّاب الرَّزّاق؛ كيفَ لا وخزائنُ اللّه ملآى (وللّهِ خَزائنُ السَّموات والأرض) وأنَّ رِزْقَ العبد يأتيه بَقدْرِ عطيَّته ونفقته؛ فمَن أكثرَ أُكثرَ لهُ، ومَن أقلَّ أُقلَّ لهُ،ومَن أمسَكَ أُمسكَ عليه (روح المعاني للألوسي ٢٢ / ١٥٠).

وللّهِ درُّ مَن قالَ: "يقيني باللّهِ يقيني" وحديث النبي صلى اللّه عليه وسلم: "أنفِقْ بِلالاً ولا تخشى من ذي العَرش إقلالاً" (الطبراني ٢٥٧٢).

إنَّ الصدقةَ تدفعُ عن المريض البلاءَ والمرضَ وتكونُ سبباً في الشفاء بإذن اللّه تباركَ وتعالى؛ لحديث النبيِّ مُحمَّدٍ صلّى اللّهُ عليه وسلَّم: "داوُوا مَرضاكُم بالصَّدقة" رواه البيهقيُّ في شُعب الإيمان (٣ / ٢٨٢)، كما أنَّ عدمَ الصدقة يجرُّ على العبد المصائبَ والمعائب فقد روى الحاكمُ في المستدرَك عن أنس بن مالك رضيَ اللّهُ عنهُ – مرفوعاً – وفيه: "أنَّ جبريلَ قال ليعقوبَ – عليهما السلامُ: أتدري لِمَ أذهبتُ بَصرَكَ، وقوَّسْتُ ظَهْرَكَ، وصَنَعَ إخْوةُ يُوسُفَ ما صَنعُوا؟ إنَّكُم ذَبَحتُمْ شاةً، فأتاكُمْ مسكينٌ يتيمٌ وهوَ صائمٌ فلمْ تُطعموهُ منهُ شيئاً" فما بالُ أقوامٍ لئامٍ لا يُبالونَ برمي أطايب الطعام في حاويات أُعدَّتْ خصِّيصاً لِرَمي القاذُورات – لا المَطعومات والمشروبات والمُدَّخرات – والنبي الكريمُ يقول: "إذا ابتليتُم بشيءٍ من هذه القاذُورات فاستتِرُوا" وقد سمَّى المعاصي قاذوراتٍ وقد نهى عن رمي اللقمة إن سَقطت من أحدهم ولا يدعها للشيطان فما حالُ أقوامٍ يتباهونَ بالموائد العامرة بالطعام والخاوية من شُكر اللّه تبارك وتعالى، ويكأنَّهم لم يَسمعوا بالحديث الشريف: "إنَّ اللّهَ يُبغضُ البَذِخينَ الفَرِحينَ، ويُحبُّ كُلَّ قلبٍ حَزينٍ، ويُبغضُ أهلَ بيتٍ لحميينَ ويُبغضُ الحَبرَ السَّمينَ" (البذخين الفرحين: أهل البطر والترف وغمط الناس حقوقَهم، واحتقار الضعفاء منهم، والتكبُّر على الحقِّ وأهله والتعالي على الناس، أصحاب الأَشرِ والفَخرِ والعُجب والصَّلَف، لحميين: أيّ دأبُهم وديدنُهم أكلُ اللحوم البشرية منها بالغيبة، والحَيوانية منها بالنَّهَم والشرَه والتُّخمَة. الحَبر السمينَ: من يتشبه بأخلاق وسلوك كثيرٍ من الكُهَّان من الشره والصلف والنهم وأكل أموال الناس بالباطل قال اللّهُ تعالى: (قلْ كلٌّ يعملُ على شاكلته) وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "مَن أحبَّ قوماً حُشرَ مَعهُم" فالمعيَّةُ: إمّا مَعيَّةٌ مع اللّه الخالق, وإمّا مَعيَّةٌ مع الخَلق بالخُلق والسُّلوك والعادات، و"نظيرُ الشيءِ مُنجَذبٌ إليه". ومن أروع ما قيل: "وعلى العاصي تدورُ الدوائرُ – أعني المصائبَ والمعائبَ لا النواعيرَ التي تدورُ على نهرِ العاصي؛ فهل بعد الكفرِ بنعَمِ اللّه تبارك وتعالى (رَمياً وحَرقا ودَفناً) من معصيةٍ وفاحشةٍ تستوجب نقمةَ اللّهِ المنتقمِ الجبَّارِ؟ فهل من مُعتبَر؟!

روى الإمامُ أحمدُ في المُسنَد: "مَن أنفقَ في سبيلِ اللّهِ كُتِبَ له سبْعُمائةُ ضعفٍ".

وعلى التاجرِ أن يتعوَّدَ بذلَ الصدقة في بيعه وشرائه؛ لقول النبيِّ سيِّدنا محمَّدٍ صلّى اللّهُ عليه وسلَّمَ: "يا مَعشرَ التجَّارِ، إنّ الشيطانَ والإثمَ يَحضُرانِ البيعَ؛ فشُوبُوا بيعَكُم بالصَّدقَة" (الترمذي ٣ / ٥١٤).

كما أنّ اللهَ تباركَ وتعالى يُذهبُ ببَركةِ الصَّدقةِ العُجبَ بالنفسِ، والكِبْرَ، وغَمطَ الناسِ حقوقَهم؛ فلا يَعودُ المنفقُ مُنتَهزاً مُبتزّاً نَرجسيّاً تعيساً بئيساً مُنتكسَ الفِطرةِ مَطموسَ القلبِ؛ بل يُصبحُ إنساناً جَواداً معطاءً؛ حتّى لا ينطبقَ عليه الحديثُ الشريفُ: "تَعِسَ عبدُ الدِّينارِ وعبدُ الدِّرهَمِ وعبدُ الخَميصةِ... تَعِسَ وانتَكَسَ وإذا شِيكَ فلا انتُقِش" وهذا دعاء عليه بألاّ يَجدَ مَن يُخرجُه ممّا هُو فيه.

وما أصعبَ المَنَّ بعدَ العطاءِ، ولَيتهُ لم يُعطِ ولم يَمُنَّ؛ فالمَنُّ لا يكونُ إلاّ للهِ تعالى؛ فهو وحدَهُ المَنَّانُ الواحدُ الدَّيَّانُ، أمّا غيرُه فلا يجوزُ بحالٍ من الأحوالِ أن يَمُنَّ؛ لأنَّ المَنَّ يقطعُ أعناقَ الرِّجالِ، وهو طبعُ اللئيمِ والخسيسِ ومَن لا خلاقَ له من الأجرِ؛ ولو أنّه تصدَّقَ بصدقٍ وإخلاصٍ وتجرُّدٍ عن السُّمعةِ والرِّياءِ لما وقعَ في سُوءٍ منه فقد خابَ وخَسِرَ) ف"المَنَّانُ لا يُعطي شيئاً إلاّ منَّةً" والمؤمنُ يُيَسِّرُ ويُبَشِّرُ ويُسِرُّ؛ لقولِ سيِّدنا الرَّسولِ مُحمَّدٍ صلّى اللهُ عليه وسلَّم: "مَن يلقَ أخاهُ المسلمَ بما يُحبُّ ليُسِرَّهَ بذلك، سَرَّهُ اللهُ يومَ القيامةِ" (رواه الطبرانيّ ٢٢٨ / ٢ وإسنادُه حسنٌ).

وقد وَردَ عن سيِّدنا عليّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه: "مَن آتاهُ اللهُ منكُمْ مالاً فليَصِلْ به القرابةَ،وليُحسِنْ فيه الضِّيافةَ، وليفُكَّ به العاني الأسيرَ وابنَ السبيلِ والمساكينَ والفقراءَ والمجاهدينَ، وليَصبرْ فيه على النائبةِ؛ فإنّ بهذهِ الخصالِ يَنالُ كرَمَ الدُّنيا وشَرَفَ الآخرةِ" (روضة العقلاء لابن حبَّان ١٩٤).

إنَّ المتأمِّلَ في حياةِ الشعوبِ والأُممِ يَرى العَجبَ العُجابَ من تشاجُرٍ وتَغادُرٍ قد جرَّ إلى سفكٍ للدماءِ، واستباحةٍ للمَحارمِ وقد كان السببُ الأساسُ هو الشُّحُّ وعدمُ الإنفاقِ؛ فلو بذلَ المَعروفَ لحصلت المُواساةُ تراحُماً وتحابُباً وتآلُفاً وتكاتُفاً وتكافُلاً، في حين لو تمَّ الإنفاقُ كما فرَضَه اللهُ تباركَ وتعالى لتماسَكت الأُسَرُ ونُصِرَ الحقُّ وأُسعِدَ البَشرُ وعمَّ البِشرُ، ومن واجبِ الإنسانِ المسلمِ أن يتخلَّقَ بأخلاقِ اللهِ تعالى ومن ثمَّ بقُدوتِه سيِّدنا مُحمَّدٍ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّم وهو القائلُ: "إنّ اللهَ مُحسِنٌ فأحسِنُوا" (رواه ابنُ عديٍّ في الكامل ٤٢٥ / ٦).

ولا بُدَّ من التحرِّي والتثبُّتِ حينَ البذلِ وصُنعِ المَعروفِ؛ حتى لا يُخدَعَ المُحسِنُ بمظاهرَ مُزيَّفةٍ وأساليبَ ملتويةٍ وكما قال أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه: "لستُ بالخَبِّ ولا الخَبُّ يَخدَعُني" وعليه أن يتحرَّى الحلالَ الطيِّبَ فلا ينفقَ الرَّديءَ لقولِ اللهِ تعالى: "أنفِقوا من طيِّباتِ ما رَزَقْناكُم" وعليه أنْ يعلمَ أنّ الصدقةَ شُرِعَتْ لدفعِ الحاجةِ؛ فلا بُدَّ من مراعاةِ الحالِ والمآلِ والزمانِ والمكانِ (الأحوجَ فالأحوجَ، والأهمَّ فالمُهمَّ؛ ف"الأقربونَ أولى بالمَعروفِ" (نفساً، أهلاً، قرابةً، جيرةً، وبلداً).

إنَّ الأمراضَ الفتّاكةَ التي تفتكُ بالأُمَّةِ (فكريّاً ونفسيّاً، جسدياً واجتماعيّاً، مُعاملةً واقتصاداً) جعلَ أهلَ الأهواءِ وأصحابَ المذاهبِ الهدّامةِ وحملاتِ التضليلِ ودُعاةَ الفكرِ الزائغِ الدخيلِ وأربابَ التدجيلِ تمدُّ أيديَها بطُولِها، وتبسُطُ أذرُعَها الأخطبوطيةَ(عَرضاً وعُمقاً) وتبثُّ أفكارَها المسمومةَ؛ لتُوقِعَ الناسَ في أوكارِها الآسنةِ المظلمةِ، وتحشوَ عقولَ المنتهَزينَ، وتصيدَ المعوزينَ في شَركِهم ومُشاركتِهم شركَهُم، وبدهائِهم يتخبطُ الدَّهماءُ في دَهاليزِهم المُعتمةِ مُستغلَّةً العَوزَ والفاقةَ والجهلَ (البسيطَ والمُركَّبَ)وكما قيلَ: "الجُوعُ كافرٌ والمَرضُ لا يَرحَمُ"؛ فكلُّ فردٍ يُضلَّلَ

أو يَخرُجُ من دينه، ويتنكَّرُ لتاريخه وأمجاد أُمَّته ويصبحُ فريسةً سائغةً لذئاب البشر سيُسألُ عنه أغنياءُ المسلمينَ– ولاسيّما العربَ (شرقاً وغرباً) ممّا هُم فيه من البلاء؛ فما جاعَ فقيرٌ إلاّ بتُخمة غنيٍّ، وما جهلَ طالبٌ أو طالبةٌ إلاّ ببُخلِ وشُحِّ المُنتهزينَ، ولا يبذلونَ حقَّ الله للعلمِ وأهله ومُستحقِّه وأدواته، ولو أنّ أصحابَ القلوبِ المريضة– مرضَ النفاقِ القلبيِّ والشُّحِّ السُّلوكيِّ– وفَّروا ما يدفعونَه من أجورٍ لتخسيسِ الكُروشِ، ونفخِ الخدودِ، وتقليصِ القُدودِ، ونَمصِ الحواجبِ، ووَشْرِ الأسنانِ، وأشَرِ الحقِّ وأنفقوها لأهلها وفي حلِّها ومَحلِّها لما ترهَّلتْ أجسامُهم، ولما زادتْ شُحومُهم (الثلاثيةُ والرُّباعيّةُ . . .) ولما كثرتْ هُمومُهم – لاسيّما إن كان همُّهُم بطنتَهُم لا فِطنتَهم، أو كان دينُهم دينارَهم، وما علموا أنّ الدينارَ معناهُ: "أنّ مَن كانَ مالُه من حلالٍ فهو دينٌ ونُورٌ، وإن كان من حرامٍ فهو دُنيا ونارٌ"، فعَليكَ أُخيَّ بالشطرِ الأوَّلِ وكن على نُورٍ ودينٍ، وحذارِ حذارِ من الشطرِ الثاني لئلا تقعَ في العارِ فتمسَّكَ النَّارُ.

ولو فهمُوا معنى الحديثِ الشريف: "إنّ اللهَ يُبغضُ أهلَ بيتٍ لحميينَ ويُبغضُ الحَبرَ السمينَ"؛ لَما أهدَروا أموالَهُم في مسابقاتٍ وسُرادقاتٍ؛ أوَّلُها تُرَّهاتٌ وآخرُها آهاتٌ(ورقٌ، نَردٌ، مُقامَرةٌ، تفحيطٌ وتشحيطٌ، مُغامرةٌ. . .) ولما أضاعُوا أوقاتَهم في القيلِ والقالِ وكثرةِ السؤالِ وإضاعةِ المالِ، ولَما جعلُوا من المنزلِ أو المَنزولِ هزلاً وزَللاً؛ ف"حياةُ المسلمِ لا تَعرفُ العبثَ" ونفَسُ المؤمنِ طاهرٌ طيّبٌ زكيُّ الرائحةِ، ولا يرضى بشمِّ رائحةٍ كريهةٍ، ولا مكانَ في بيتِه لتميمةٍ أو شَعوذةٍ؛ لحديثِ النبيِّ مُحمَّدٍ صلّى اللهُ عليه وسلمَ: "مَن علَّقَ تميمةً فلا أتمَّ اللهُ لهُ".

ولو اغتنمُوا أوقاتَهم لبَارَكَ اللهُ أقواتَهم وزادَ أقواتَهم وأعزَّهُم، ولما جعلَ العدوَّ يَغزُوهُم في عُقرِ دارِهم عندما أضاعُوا حقَّ اللهِ في سبيلِ دراهِمِهم؛ فاصطلُوا بنارِ عدوِّهم؛ لأنَّهم أخذُوا الشطرَ الثاني من الدِّينارِ.

ولا تعجب أُخيَّ؛ فمَن غطَّى الرَّانُ قلبَه سلبَه اللهُ تعالى عقلَه ولبَّه قال الله عزَّ وجلَّ: (كلاّ بلْ رانَ على قُلوبهم ما كانوا يكْسبونَ * كلاّ إنَّهُم عن ربِّهم يَومَئذٍ لمَحجُوبُونَ* ثمَّ إنَّهُم لَصَالوا الجَحيمِ * ثُمَّ يُقالُ هذا الذي كنْتُمْ به تُكذِّبونَ) وقد ثبتَ (علميّاً ومخبريّاً ومجهريّاً) أن مَن يستغرقُ في المعاصي يتعطَّلُ عندَه مركزُ الشعورِ والإحساسِ فلا يعملُ؛ بل يُصرُّ فيصيرُ كالبهائمِ ؛ بلْ أضلَّ سبيلاً؛ فعَيشهُ عيشُ أبي لهبٍ، وعيشتُها عيشةُ حمَّالة الحطبِ (قل كلٌّ يعملُ على شاكلته). وأمّا الحَبرُ السمينُ (لا الثمينُ) فهو العالمُ البدينُ – ظاهرُ السمنةِ والبدانةِ – إلاّ مَن رَحمَ اللهُ تعالى ممَّنْ كان مريضاً عافاه اللهُ تعالى– الذي يتبحَّرُ في العلمِ ولا يُعلِّمُ الناسَ، ويبخلُ بعلمِه وجَاهه، ونُصحه وإرشاده، ولا يَغارُ على شَرعِ اللهِ تباركَ وتعالى، ولا يُبالي أجهلَ الناسُ أمْ ضلُّوا؟ ولا يَعبأُ بأطفالِ المسلمينَ– لاسيّما العربَ منهُم؛ لأنّ "العَرَبَ مَادَّةُ الإسلامِ" ولو درَى لعَلِمَ أنّ الأولادَ جواهرُ ودُرَرٌ، وفلذاتُ أكبادِ البشرِ– أحفادِ سيِّدِ المُرسلينَ والصحابةِ والتابعينَ من الأئمةِ الأعلامِ المجتهدينَ؛ مَن كان مَجدُهُم دُرَّةً بينَ الأممِ إلى يومِ الدينِ. في حين لو اغتنَموا هذه الجواهرَ واللآلىءَ والدُّرَرَ، وعلَّمَهُم وفقَّهَهُم (ديناً ودُنياً، عبادةً ومعاملةً، جُوداً وكرَماً، إتقانا وإحساناً)؛ لأصبَحوا أبطالاً وفُرساناً وبُناةَ أمَّةً (أدباً وعلماً وعملاً، جدّاً واجتهاداً ومُجاهدةً، أفكاراً وإبداعاً وابتكاراً، يقظةً وتمكيناً ونهضةً) ولأبعَدوا عنهُم شبحَ الأمراضِ الوهميَّةِ والنفسيَّةِ والجسميةِ، فطوبى لَمنْ حوَّلَ الصحراءَ إلى دَوحةٍ

خَضراءَ، وغيَّر الخرابَ إلى إعمارٍ، واستثمر القِفار بما فيها من طاقاتٍ هوائية، وفِلِّزاتٍ صَخريَّةٍ وحَجريةٍ ورمليةٍ، وسُعراتٍ حَرارية، وبلوراتٍ مَعدنيةٍ، وأحيا الصناعاتِ واستفاد من الموارِدِ والمَواهب، وركَّزَ على المَوجودِ وجاد به على الأمَّةِ ف" الناس شركاء في ثلاث: الماءِ والكلأِ والنارِ" لا المفقود، وأمرَ بالمُستطاعِ ليُطاعَ؛ فشتَّانَ شتَّانَ بينَ مَن أنفقَ عِلمَه، وبَذلَ عملَهُ، وأعطى وأسدى في سبيلِ سدِّ مَنافذِ النفاقِ، وتحطيمِ شَرَكِ الإشراكِ، وفَتحِ أبوابِ العملِ الشريف(زراعةً وصناعةً وتجارةً ودعوةً) وآتى المالَ على حُبِّهِ لمستَحقِّه ليكونَ تاجراً صادقاً تقيَّاً نقيَّاً بَرَّاً أميناً فيُصبحَ قُدوةً (لا حُدوةً أو جَذوةً) بينَ الناسِ؛ فيُشارُ إليه بالبنانِ بأنّه التاجرُ الصَّدوقُ الأمينُ الذي يُحشَرُ مع النبيِّينَ والصديقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ وحَسُنَ أولئكَ رَفيقا) .

والويلُ كلُّ الويلِ – دُنيا وآخرة – لَمن أنفقَ أموالَه لينفقَ سِلعتَهُ، ويبيعَ أمَّتَه في سِباقاتِ أو سُرادقاتِ الفُسَّاقِ ومَنْ مَرَدَ على النفاقِ من (المُخاطرةِ والمُغامرَة والمُقامرَة) أو ارتادَ المواخيرَ (فيها الضَّيرُ لا الخَير) إلاّ مَن أضاعَ دينَهُ، وأفسدَ عقلَهُ، وثلمَ عِرضَه، ودنَّسَ شَرفَه؛ فأغْضَبَ ربَّهُ وخالقَه، وأرضَى شيطانَه وسُلطانَه ف"الشطآنُ مَرابِضُ الشَّيطانِ والسلطانُ هوى والهوى سلطانٌ" .

اللهُمَّ أجرنا من الفتنِ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ برحمَتِكَ يا أكرَمَ مَن أعطى وأجودَ مَن أعطى،وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على مَن بُعِثَ رَحمةً مُهداةً . اللهُمَّ آمينَ.